المقدمـــة

"بسم الله الرحمن الرحيم"

مقدمة

أحمدك اللهم حمد الشاكرين، وأصلي وأسلم على أشرف المرسلين صلى الله عليه، وعلى آله وصحابته أجمعين، وبعد.

فقد بذل العرب المسلمون جهوداً هائلة في سبيل خدمة لغتهم، ونظروا في جوانبها المختلفة نظرات عميقة شاملة. وكانت أصوات لغتهم، من أكثر تلك الجوانب، التي استرعت انتباه علمائهم. ولا سيما حين اتسعت رقعة الاسلام، وتوزع أبناء العربية في مختلف الأمصار. وكان هدفهم من وراء ذلك المحافظة على القرآن الكريم ولغته. فعملوا – في جهد لا يعرف الملل– على اتقان النطق بتلك الأصوات، وخاصة عندما انتشر الاسلام في بقاع الأرض المختلفة، وضم في عطفيه شعوباً وأمماً مختلفة الألسن واللغات، وطرقت أسماع العرب أصوات تلك اللغات. فخشي أبناء العربية أن تنحرف أصوات لغتهم، عن سمتها الصحيح، ومسارها السليم نتيجة تأثرها بأصوات تلك اللغات. فلم يكد فجر القرن الهجري الثاني يبزغ حتى نهض من بين علماء العرب من يدرس تلك اللغة، ويصف أصواتها، معتمداً في ذلك على "الملاحظة الذاتية" Introspection التي تتكئ، في منهجها في استخلاص

الحقائق، وتصنيفها، ووضع القواعد الخاصة بها، على التجربة الشخصية المعتمدة بدورها على اللسان والأذن، دون المعامل والأجهزة المختلفة التي لم تكن معروفة في ذلك الوقت المبكر من تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، بَلْه الحضارة الإنسانية.

وقد حقق أجدادنا في هذا الميدان –ميدان الدرس الصوتي– انجازات مبكرة، وقطفوا من ثمار بحثهم جنى طيبا تمثل في جوانب لغوية مختلفة، كان من أهمها وضعهم ألفبائية صوتية للغة العربية، وتصنيفهم أصوات العربية إلى فئات مختلفة وفقاً لمعايير خاصة وضعوها، كتقسيم الأصوات إلى صحيحة ومعتلة، ومجهورة ومهموسة، وشديدة ورخوة، ومستعلية ومستفلة وغير ذلك.

وقد برع بعض علماء اللغة العرب في دراستهم للجهاز النطقي الإنساني، فقسموه إلى مدارج وأحياز، ثم نسبوا إلى كل مدرج وحيز منها مجموعة الأصوات التي تنتمي إليه.

ولعلنا نجد في شخص الخليل بن أحمد الفراهيدي، بداية حقيقية للدرس اللغوي بعامة، والصوتي بخاصة عند العرب[1]، فهو يتبوأ – في

(١) سُبق الخليل بن أحمد ببعض العلماء، الذين كانت لهم بعض الآراء في مجال الدرس الصوتي، نذكر منهم –على سبيل المثال– أبا الأسود الدؤلي، الذي حاول أن يضع رموزاً لقسم مهم من قسمي الأصوات اللغوية، ونعني بها الحركات، ويحيى بن يعمر ونصر بن عاصم اللذين حاولا إصلاح نظام الكتابة العربية عن طريق وضع نظام الاعجام والنقط، وذلك من أجل التمييز بين الأحرف المتشابهة في الرسم، كالحاء والجيم والخاء وغيرها..=

ميدان الدراسات اللغوية العربية بمختلف فروعها وأنواعها – مركز الريادة والأصالة، وذلك عائد –بلا شك– إلى توقد ذهن هذا العالم، وعبقريته الرياضية الفذة، وطاقاته الفكرية العميقة، التي وجهها لخدمة اللغة العربية، لغة القرآن الكريم، والبحث في أسرارها، والكشف عن خصائصها.

كان الخليل بن أحمد عالما رياضياً، استطاع أن يكوِّن نماذج للبنى التي تتألف منها النظم المختلفة. وقد ساعده، في كل ما ذهب إليه، سمعه المرهف الحساس. فوجّه عنايته لأوزان الشعر وإيقاعه، واستخرج بحوره وقوافيه، أو ما يُسمى بعلم العروض الذي لا يعدو أن يكون دراسة صوتية لموسيقى الشعر. واتجه كذلك إلى الألحان والأنغام، وألف في الإيقاع والنغم.

وإضافة إلى ما سبق، فإن الخليل بن أحمد يعدُّ –بحق– إمامَ علماء الأصوات العرب، فقد قدم للفكر الصوتي العربي، أهم أسسه ومبادئه، ولقد تمثل ذلك في تلك القمة العلمية اللغوية، التي قدمها هذا العالم الفذ للفكر العربي اللغوي، ونعني بها كتابه الخالد المعروف باسم كتاب العين، فضلا عن أفكاره التي تناثرت في كتب الأقدمين ، والتي تشير إلى علمه

=غير أن هذه المحاولات الأولية –وما كان على شاكلتها– لم تكن أكثر من ملاحظات فردية عابرة لم تصل –ولم يصل بها أصحابها أيضا– إلى مرحلة التأطير، ووضع النماذج الفكرية في مجال البحث اللغوي.

وفضله، ومقدار اعتزاز القدماء بآرائه واعتمادهم عليه. ولعل من الأمور التي تذكر لهذا العالم – في هذا المجال- وضعه للرمز الخاص بالهمزة العربية ، وهو عبارة عن رأس عين صغيرة (ء) مما ينبئ عن إحساسه بالعلاقة المخرجية الدقيقة، التي تربط بين هذا الصوت، وصوت العين، كما يعزى إليه أيضاً، وضعه للرمز الدال على الإدغام وهو ما يسمى بالشدّة، ويشار إليه بالرمز (ّ)، وربما كان هذا العالم ينطلق – فيما ذهب إليه في هذا الصدد- من تصورات صوتية شغلت- وما تزال تشغل- الفكر الصوتي فيما يسمى بتأثير الأصوات وتأثرها بعضها ببعض.

غير أن هذا العالم الفذّ انصرف إلى اللغة في عمومها، فيمَّم وجهه شطر أصواتها، وصرفها، ونحوها، واستطاع بفكره الثاقب أن يضع الأصول والقوانين العامة، التي تحكم أطرها، وتتحكم في آلياتها. ومما لا ريب فيه، أن نظرات الخليل الأولى، في البحث اللغوي عند العرب، كانت الغرس الطيب للبدايات الحقيقية للعلوم اللغوية العربية، في مستوياتها المختلفة.

لقد قدم – في ميدان الدرس الصوتي- دراسة دقيقة للجهاز الصوتي، فقسمه إلى مناطق ومدارج، يختص كل منها، بحرف أو مجموعة أحرف، وأشار إلى ضرورة "ذوق الحروف" لبيان حقيقة مخرجها ، وهدي بذكائه المتفوق، إلى مقاييس ومعايير صوتية أقرَّ كثيراً منها، علماء

الأصوات المحدثون ، من ذلك –على سبيل المثال– قوله في الحركات : إنها أبعاض حروف المد، واختراعه علامات الضبط التي لا تزال نستعملها حتى اليوم: من ضمة وفتحة وكسرة.(١)

وعلى الجملة، فقد احتل كتاب العين –في علوم العربية ودرسها– موقع الريادة والقيادة، وكان – وفي ظننا أنه سيبقى – عَلَماً شامخاً ، ومنارة مضيئة لكل بحث لغوي في كل مستوياته.

وبعد الخليل، جاء دور تلميذه العبقري سيبويه، الذي ورث، عن أستاذه، علمه وفكره، إضافة إلى كرسيّه في إدارة المدرسة البصرية وتوجيهها. وكان له –كما كان لأستاذه من قبل– عقلية علمية ناضجة، وذهن متوقد صاف، يدلنا على ذلك إلمامه بمختلف العلوم ومسائل الفكر، غير أنه نبغ في الدرس اللغوي الذي بلغ قمته في مؤلفه الموسوم بالكتاب.

إن من المسلم به أن الخليل بن أحمد كان صاحب فكرة الترتيب الصوتي للحروف، ولكن من المسلم به أيضاً أن سيبويه، الذي أخذ عن أستاذه هذه الفكرة، لم يكن مجرد ناقل أو ناسخ، وإنما كان، في كل ما أخذ، صاحب فكر وصاحب اتجاه، فقد أدخل على فكر أستاذه تعديلاً وتطويراً خالف فيهما رأي أستاذه في كثير من جزئيات هذا الترتيب، ويكفي أن

---

(١) مقدمة سر صناعة الاعراب. ١/ ١٧

نذكر -في هذا السياق- مخالفته لأستاذه في تصنيف الهمزة وتحديد مخرجها. فقد جعلها سيبويه أول الحروف وأعمقها مخرجاً، فابتدأ بها ترتيبه. ولقد كان -في عمله هذا- يتفق مع اتجاهات الدرس الصوتي الحديث، الذي يقرر أن صوت الهمزة هو أول الأصوات العربية مخرجاً. وليس يسوغ للخليل رأيه في موقع الهمزة، ما قاله ابن كيسان من أنه سمع من يذكر عن الخليل أنه قال: لم أبدأ بالهمزة، لأنها يلحقها النقص والتغيير والحذف.(١)

لقد كان تطوير سيبويه لعمل استاذه المرجع الأساسي، الذي أفاد منه علماء العربية، في مجال الدرس الصوتي. ولم يقتصر أَخْذُ اللغويين عن هذا الشيخ، على المادة والفكر العميق الذي ملأ جنبات الكتاب، وإنما تعداه -أيضاً- إلى المنهج الذي سلكه في كتابه والمصطلحات والتعريفات، التي كان يستعملها ويضعها معالم لفكره الثاقب وعلمه الغزير، "بل حتى أولئك المشهورون من شرّاح كتاب سيبويه أمثال السيرافي والرّماني ، كانوا يقنعون في شرحهم للأصوات اللغوية بذكر ألفاظ سيبويه وعباراته ومصطلحاته كما هي . ويبدو أن العلماء، الذين جاءوا بعد سيبويه، كانوا يعتزون بكل ما ورد عنه إلى حد يكاد يبلغ القداسة، فيقال لنا إنَّ بعضاً منهم كانوا يحفظون كتابه عن ظهر قلب،

---

(١) السيوطي: المزهر. ١/ ٩٠

وحين نحسن الظن بهم نرى أنهم ربما تحرجوا من أي تغيير في كلام معلمهم الأول، واكتفوا من أجل هذا بترديد ألفاظه. فإذا قال عن الصوت المجهور (هو حرف أشبع الاعتماد في موضعه ومنع النفس أن يجري معه حتى ينقضي الاعتماد ويجري الصوت) لا تكاد ترد في كتبهم إلا نفس الألفاظ التي عبر بها سيبويه، فلا يستبدلون بكلمة "أشبع"، أو كلمة " الاعتماد " لفظاً آخر، ولو مرادفا لهاتين الكلمتين، وهكذا كان شأنهم في باقي كلمات التعريف"[1]

وقد جاءت دراستنا لفكر سيبويه الصوتي مكونة من مقدمة، وتمهيد، وثلاثة أبواب:

التمهيد: وتحدثنا فيه –على نحو موجز– عن سيبويه من حيث نشأته، وحياته، والشيوخ الذين أخذ عنهم، والتلاميذ الذين تلقوا عليه، ورحلته المشهورة إلى بغداد، ومناظرته للكسائي. ثم تحدثنا –على نحو موجز أيضاً– عن كتابه من حيث مادته، ومنهجه الذي سار عليه في عرض موضوعاته، فضلاً عن مكانة هذا الكتاب وقيمته في ميدان الدرس اللغوي.

---

(١) د. ابراهيم أنيس: الأصوات اللغوية. ص: ١٠٥– ١٠٦

الباب الأول: وخصصناه لدراسة الحروف العربية. وقد قسمناه إلى أربعة فصول. درسنا في أولها حروف العربية من حيث عددها الأصلي، وعددها الفرعي المستحسن، وغير المستحسن.

ودرسنا، في ثانيها، حروف العربية من حيث مخارجها التي تنتمي إليها. وناقشنا، في ثالثها، حروف العربية من حيث الصفات والملامح التي تتسم بها، كالجهر والهمس، والشدة والرخاوة، والاطباق والانفتاح... إلخ. أما الفصل الأخير فقد خصصناه لدراسة ما طرأ على بعض الأصوات العربية من تطور، في التصنيف الحديث، بالقياس إلى وضعها الذي وصفه القدماء، وعلى رأسهم شيخهم سيبويه.

الباب الثاني: وخصصناه لدراسة موضوع الإدغام. وقد جاء هذا الباب في فصلين: درسنا في أولهما موضوع الإدغام في الحرفين المثلين المنفصلين، وغير المنفصلين. أما الفصل الأخير فقد ناقشنا فيه موضوع الإدغام في الحرفين غير المثلين.

الباب الثالث: وخصصناه لدراسة موضوع الإدغام في حروف طرف اللسان والثنايا. وقد جاء هذا الباب في ثلاثة فصول؛ درسنا، في أولها، إدغام هذه الحروف في حالة الانفصال، ودرسنا، في ثانيها، إدغام هذه الحروف في حالة الاتصال. أما الفصل الأخير فقد عرضنا فيه بعض الظواهر الصوتية، التي تتعرض لها بعض البنى، كالمماثلة والحذف.

وكنا نختم بعض الفصول والأبواب بذكر بعض النتائج والملحوظات، التي أمكننا استخلاصها، من خلال عرض آراء سيبويه الصوتية. كما حاولنا -جاهدين- أن نزيل الغموض الذي اتّسمت به لغة سيبويه في أثناء عرضه لآرائه وأفكاره الصوتية.

ونودُّ الإشارة - في هذه المقدمة - إلى أننا حاولنا عقد بعض المقارنات بين ما وصل إليه بعض لغوييننا القدامى، وعلى رأسهم شيخهم سيبويه، في ميدان الدرس الصوتي، وما وصلت إليه الدراسات الصوتية الحديثة في هذا الميدان.

وبعد، فقد حاولنا في هذه الدراسة أن نكشف عن بعض تلك الجهود الهائلة التي بذلها أجدادنا في ميدان الدرس الصوتي الذي كانوا فيه - حسب اعتراف اللغويين المعاصرين- روّاداً وقادة . قال برجشتراسر G. Bergstrasser : "ولم يسبق الغربيين في هذا العلم (يقصد علم الأصوات) إلا قومان من أقوام الشرق، وهما أهل الهند، يعني البراهمة، والعرب ."[1] وقال فيرث : "لقد نشأت الدراسات الصوتية ونمت في أحضان لغتين مقدستين : العربية والسنسكريتية"[2]

---

(١) برجشتراسر: التطور النحوي للغة العربية، أخرجه وصحَّحه وعلَّق عليه الدكتور رمضان عبد التواب، ص: ١١

(٢) د. كمال بشر: دراسات في علم اللغة. ص: ٦٧

ومع ذلك، فإننا نؤمن بأن دراسة هذا الجانب اللغوي، من فكر هذا العالم العبقري، مازال بحاجة إلى مزيد من الدرس والتمحيص، كما أننا نؤمن أيضاً، بأنّ ما قمنا به، في هذه الدراسة، لا يعدو أن يكون محاولة، أو مجرد محاولة، نرجو لها أن تحقق ما صبونا إليه.

والله نسأل أن يجعل عملنا هذا خالصاً لوجهه الكريم، وأن ينفع به، فسبحانه بيده الخير، ومنه العون والتوفيق.

الدكتور محمد جواد النوري

تمهيـــد

سيبويـه وكتابـه

سيبويـــه وكتابـــه

أولاً: سيبويه[1]:

هو عمرو بن عثمان بن قَنْبَر، بفتح القاف وسكون النون، مولى بني الحارث ابن كعب، ثم مولى آل الربيع بن زياد الحارثي. وقد اختلفت كتب التاريخ والتراجم في ضبط اسم جده "قنبر"، فقيل هو "قُنْبَر" بضم وفتح، وقيل هو "قُنْبُرة" كقُنْفُذة، وقيل "قُبَّرة" كحُمَّرة، ولكن الراجح هو ضبط "قَنْبَر" بفتح وسكون على نحو ما أشرنا، ومما يؤيد ذلك ورود

(١) يُنظر ترجمة سيبويه في: وفيات الأعيان لابن خلكان ٣/ ٤٦٣-٤٦٥، ومعجم الأدباء لياقوت الحموي ١٦/ ١١٤- ١٢٧، والفهرست لابن النديم ٧٦، ومراتب النحويين لابي الطيب اللغوي ص: ١٠٦، وبغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة للسيوطي ٢/ ٢٢٩-٢٣٠، وطبقات النحويين واللغويين للزبيدي ص:٦٦، وأخبار النحويين البصريين للسيرافي ص: ٤٨، وإنباه الرواة على أنباه النحاة، للقفطي ٢/ ٣٤٦، وتاريخ بغداد للخطيب البغدادي ١٢/ ١٩٥، وخزانة الأدب لعبد القادر البغدادي ١/ ٨، وكتاب سيبويه إمام النحاة لعلي النجدي ناصف. وغيرها.

اسم جده –مع اسمه واسم ابيه– على هذا النحو من الضبط في شعر للزمخشري يمجده فيه ويترحَّم عليه:

ألا صلى الإله صلاة صدق على عمرو بن عثمان بن قَنْبَر
فإن كتابه لم يغن عنه بنو قلم ولا أصحاب منبر

أما كنيته فهي "أبو بشر"، و"أبو الحسين" و"أبو عثمان" ولكن كنيته "أبو بشر" كانت أكثر استعمالا ودورانا على الألسنة من كنيتيه الأخريين.

وأما اللَّقب الذي عرف به وهو "سيبويه"، فقد غلب على اسمه "عمرو"، وعلى كناه المختلفة، فضلاً عن أنه كان أول من حمل هذا اللقب واشتهر به.[1] وقد اختلفت الآراء حول تلقيبه بهذا اللقب، وإن كانت

---

(١) تذكر كتب الأدب واللغة والتراجم والطبقات، أن هناك أكثر من عالم في اللغة والنحو عرف بلقب "سيبويه" بعد شيخنا هذا، ويرجع السبب في ذلك –على ما يبدو– إلى تشبههم بهذا العالم من حيث البراعة في النحو، وهؤلاء العلماء هم :

أ– سيبويه، أبو بكر محمد بن موسى بن عبد العزيز الكندي المصري المتوفى سنة ٣٥٨هـ.

ب– سيبويه، أبو نصر محمد بن عبد العزيز بن محمد التيمي الأصبهاني المتوفى سنة ٣٩٥هـ.

ت– سيبويه، أبو الحسن علي بن عبد الله بن ابراهيم الكوفي المغربي المالكي المتوفى سنة ٦٦٧هـ.

تلك الآراء –رغم اختلافها– تلتقي حول مدلول عام يشي بما كان يتَّسم به هذا العالم من خصائص خَلْقية وخُلُقية مميزة. وحسبنا أن نذكر من تلك الآراء ما كان منها قريباً من شخصية هذا الشيخ، وما أُثر عنه من معالم وسمات:

١) من ذلك أن كلمة "سيبويه" تعني "رائحة التفاح"، وكان منطلق أصحاب هذا الرأي، أن "سيبويه" لقب فارسي، وهو مركب من كلمتين هما: "سيب" ومعناها "التفاح"، و"ويه" ومعناها "رائحة"، واستند أصحاب هذا الرأي، في اطلاقهم "سيبويه" على هذا العالم، إلى أن سيبويه كان يحبُ شمَّ رائحة التفاح، وأن هذه العادة كانت سمة معروفة فيه، فلُقِّب باسمها ومدلولها.

٢) وهناك رأي آخر، ذكر فيه أصحابه أنه كانت لسيبويه رائحة يتطيب بها، وأن تلك الرائحة كانت تشبه رائحة التفاح، فلقب لذلك بها، ويروي ياقوت الحموي عن ابن خالويه قوله: "كان سيبويه لا يزال من يلقاه يشم منه رائحة الطيب فسمِّي سيبويه، ومعنى "سي" ثلاثون و"بَوَيْ" الرائحة، فكأنه رأى ثلاثين رائحة طيب."[1]

---

(١) ياقوت الحموي: معجم الأدباء. ١٦/ ١١٥

٣) وعزا بعضهم تلقيبه بهذا اللقب إلى أن سيبويه كان جميلاً، وأن وجنتيه كانتا كأنهما تفاحتان.[١]

٤) وذكر ياقوت، إضافة إلى ما نقله عن ابن خالويه، أن أمه -أي أم سيبويه - " كانت ترقصه بذلك في صغره".[٢] فلازمه اللقب -فيما يبدو- في كبره.

٥) وذهب آخرون إلى أن الرجل لم يكن -كما ذكرت بعض المصادر- يحب شمَّ التفاح، أو كانت له رائحة يتطيب بها تشبه رائحة التفاح. وأن المسألة كلها لا تعدو أن تكون من قبيل المجاز أو التجوُّز. فقد كان هذا العالم - كما عرفه المقربون منه- شابا أنيقا، ظريفاً، جميلاً، وديعاً، سمحاً، طموحاً، حسن الظن بالناس، فلقب بذلك لظرفه وجماله ولطفه.

مولده ونشأته: ومثلما كان اسم جده، وسبب تلقيبه بسيبويه، موضع خلاف بين القدماء، كذلك كان تاريخ ميلاده، وتاريخ وفاته ومكانها أيضاً، موضع خلاف بين الدارسين. وليس من همنا - في هذا المقام - أن نخوض في سرد الآراء المختلفة التي قيلت حول هذه الجوانب

---

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان. ٣/ ٤٦٥

(٢) ياقوت الحموي: معجم الأدباء. ١٦/ ١١٤-١١٥

من حياة هذا الشيخ، أو مناقشتها، وإنما يعنينا منها ما كان أقرب إلى الصواب والدقة.

٦)ويبدو أن مولد سيبويه كان - على أرجح الآراء - سنة ١٤٠ هـ، أو قبلها بقليل. وأن ذلك قد تمَّ في إحدى مدن فارس القريبة من شيراز، واسمها "البيضاء"، التي اشتهرت -كما ذكر ياقوت الحموي في معجم البلدان- بوفرة علمائها وفقهائها وقرّائها الذين كان منهم "الحلاج" الصوفي المشهور، والقاضي "البيضاوي" المفسر المعروف.

أما وفاته، فيبدو أنها كانت - على أرجح الآراء- سنة ١٨٠هـ وعمره آنذاك نيف وأربعون سنة [١]، وأن ذلك قد كان-على الأرجح-في مدينة شيراز. قال الأصمعي: قرأت على قبر سيبويه بشيراز هذه الأبيات، وهي لسليمان بن يزيد العدوي[٢]:

ذهب الأحبة بعد طول تزاور ونأى المزار فأسلموك وأقشعوا
تركوك أوحش ما تكون بقفرة لم يؤنسوك وكربة لم يدفعوا
قضى القضاء وصرت صاحب عنك الأحبة أعرضوا

---

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان. ٣/ ٤٦٤. وكذلك:
ياقوت الحموي: معجم الأدباء. ١٦/ ١١٥.

(٢) ياقوت الحموي: معجم الأدباء. ١٦/ ١١٥-١١٦

وواضح من تاريخ حياة هذا العالم، أنه ولد في أوائل الخلافة العباسية، وتوفي في عهد الخليفة الرشيد، الذي كان يمثل -بحق- العصر الذهبي للعبقرية العربية الإسلامية في جميع الميادين الفكرية والعلمية، التي ورثها أجدادنا عن حضارات سابقيهم من فرس وروما، بعد أن تم استيعابها وتمثلها وصياغتها من جديد، ثم تقديمها للإنسانية على نحو مبتكر طريف.

ترك سيبويه موطنه ومسقط رأسه "البيضاء" وهو ما يزال غلاماً حديث السن، ويمَّم وجهه شطر البصرة، التي كانت -ومثلها الكوفة وبغداد- إحدى عواصم الفكر الإسلامي، حيث العلم ومجالس العلماء، وطفق سيبويه يطلب العلم في البصرة، وطمحت نفسه -في البداية- للاستزادة من العلوم الدينية، فلزم مجلس شيخ أهل البصرة وإمامها، حماد بن سلمة بن دينار (ت ١٦٧هـ)، الذي كان إماماً، فاضلاً، تقياً، صالحاً، حجة، ثقة، فصيحاً. وتُحدثنا المصادر أن سيبويه كان -ذات مرة- يستملي على حماد، "فقال حماد: قال رسول الله-ﷺ-: "ما من أحد من أصحابي إلا من لو شئت لأخذت عنه علماً ليس أبا الدرداء". فقال سيبويه: ليس أبو الدرداء. فقال له حماد: لحنت يا سيبويه، ليس أبا

الدرداء. فقال: لا جرم لأطلبنَّ علماً لا تلحِّنني فيه أبدا، فطلب النحو، ولزم الخليل"[1]

لقد كانت هذه الحادثة – ومعها حوادث أخرى تذكرها كتب التراجم– الحافز الذي حرك في نفس سيبويه وعقله أيضاً الرغبة والشهوة الجامحة في تعلم النحو، والعناية بمسائله، فأقبل على درسه، والتحق بحلقات النحويين واللغويين، إلى أن استقامت له القناة، فبلغ –فيما أراد– القمة السامقة والغاية المنشودة.

شيوخ سيبويه وتلاميذه :

تتلمذ سيبويه، في بداية رحلته في طلب العلم، كما ذكرنا قبل قليل، على شيخ أهل البصرة وإمامها حماد بن سلمة. ولكن نهم هذا الفتى الوافد على البصرة لم يكن لتشبعه حلقة واحدة، أو الاكتفاء في التلقي على عالم واحد، ولذلك فقد كان لا يبرح يرتاد حلقات كبار الشيوخ والأئمة، يصقل فيها موهبته المشرئبة، ويستكمل بما ينهل من معينها، علمه المتنامي. ومن أشهر أولئك العلماء الذين تتلمذ عليهم سيبويه:

١. عيسى بن عمر الثقفي، المتوفى سنة ١٤٩هـ، الذي كان –كما وصفه ياقوت– عالماً بالنحو والعربية والقراءة، وتنسب له كتب التراجم

(١) ياقوت الحموي: معجم الأدباء. ١٠/ ٢٥٥

والطبقات كتابين في النحو هما : الإكمال أو المكمِّل، والجامع . وفيهما يقول تلميذه الخليل بن أحمد[1]:

بطل النحو جميعا كله غير ما أحدث عيسى بنُ عمرْ
ذاك إكمال وهذا جامع فهما للناس شمس وقمرْ

٢. الأخفش الأكبر، وهو أبو الخطاب عبد الحميد بن عبد المجيد، المتوفى سنة ١٧٧هـ، الذي كان - إضافة إلى ورعه وثقته - إماماً في العربية.

٣. يونس بن حبيب الضبي، المتوفى سنة ١٨٢هـ، الذي كان إمام نحاة البصرة في عصره، ومرجع الأدباء والنحويين في المشكلات. وكانت حلقته مجمع فصحاء الأعراب وأهل العلم والأدب[2].

٤. أبو زيد سعيد بن أوس الأنصاري المتوفى سنة ٢١٥هـ. الذي كان نحوياً لغوياً أديباً، وقد غلبت عليه اللغة والغريب والنوادر، فانفرد بذلك، وكان سيبويه إذا قال سمعت الثقة، يريد به أبا زيد الأنصاري[3]. ويروى عن أبي زيد قوله: " كان سيبويه يأتي مجلسي وله ذؤابتان، قال: فإذا

---

(١) ياقوت الحموي: معجم الأدباء. ١٦/ ١٤٧.

(٢) السابق. ٢٠/ ٦٤

(٣) السابق. ١١/ ٢١٣، ٢١٥

سمعته يقول: "حدثني من أثق بعربيته"، فإنما يريدني."[1]

٥. أما أشهر شيوخه، على الاطلاق، فقد كان الخليل بن أحمد، المتوفى سنة ١٧٥هـ، صاحب معجم العين المشهور، وواضع علم العروض. ويعد سيبويه مديناً، في كثير من مسائل كتابه، إلى أستاذه الخليل ابن أحمد، وكان يعنيه في كتابه ويقصده عندما يقول: "وسألته" أو "قال" من غير أن يذكر قائله، فهو الخليل"[2].

وكان الخليل يكرمه ويجله ويفسح له صدره، ويرى فيه طالباً واعداً، وقد حدَّث ابن النَّطَّاح فقال: كنت عند الخليل بن أحمد فأقبل سيبويه فقال الخليل: مرحبا بزائر لا يملّ. قال: وكان كثير المجالسة للخليل، وما سمعت الخليل يقولها لغيره، قال: وكان شاباً جميلاً نظيفاً[3].

أما تلاميذه فقد عرف منهم واشتهر ثلاثة، وهم:

١) الأخفش الأوسط، وهو أبو الحسن سعيد بن مسعدة، المتوفى سنة ٢١٥هـ، على بعض الآراء، الذي كان أحد أئمة النحاة من البصريين، وممن شهدوا مولد "الكتاب" ونشأته، وكان كثير المخالطة لسيبويه، وعالماً

---

(١) أبو الطيب اللغوي: مراتب النحويين. ص: ٧٤

(٢) السيرافي: أخبار النحويين البصريين. ص: ٤٠.

(٣) ياقوت الحموي: معجم الأدباء. ١٦/ ١١٨

بأسرار كتابه، وله الفضل في نشره وإذاعته[1] .

٢) قطرب، وهو أبو علي محمد بن المستنير، المتوفى سنة ٢٠٦هـ، كان يلازم سيبويه، ويبكر إليه للأخذ عنه، فإذا خرج سيبويه سَحَرا رآه على بابه فقال له يوماً: ما أَنْتَ إلا قطرب ليل، والقطرب: دويَّبةَ تَدِبُّ ولا تفتر، فلقب بذلك، وهو أحد أئمة النحو و اللغة[2].

٣) الناشئ، قال المبرد: أحفظ من أخذ عن سيبويه الأخفش، ثم الناشئ، ثم قطرب[3]، وجاء في مراتب النحويين: "وكان ممن أخذ عن سيبويه والأخفش رجل يعرف بالناشئ، ووضع كتباً في النحو مات قبل أن يستتمها وتؤخذ عنه، فأخبرنا محمد بن يحيى قال : سمعت محمد بن يزيد يقول : لو خرج علم الناشئ إلى الناس لما تقدمه أحد."[4]

٤) وإذا كانت ذاكرة التاريخ لم تعِ لنا من أسماء تلاميذه إلا النزر اليسير، فإن الأجيال، التي جاءت بعده، كانت في علمها، وما زالت، عالة على ما خطّه هذا العالم، في حنايا كتابه، من قضايا نحوية، وصرفية، وصوتية، على اتساع المكان، وامتداد الزمان.

---

(١) ياقوت الحموي:معجم الأدباء. ١١/ ٢٢٤ وما بعدها.

(٢) السابق ١٩/ ٥٢-٥٣.

(٣) السابق. ١١/ ٢٢٩-٢٣٠

(٤) أبو الطيب اللغوي: مراتب النحويين. ص: ١٣٧

رحلته إلى بغداد ومناظرته الكسائي:

بقي سيبويه في البصرة منذ دخولها، إلى أن صار فيها إماماً متألق النجم، مقدَّما على من سواه، ثم حدث أن ترك البصرة متوجهاً إلى بغداد، طامحاً إلى الشهرة في حاضرة الدولة، وكان ذلك في خلافة الرشيد، ووزارة يحيى بن خالد البرمكي. وتذكر المصادر أن سيبويه سأل الوزير يحيى البرمكي أن يجمع بينه وبين شيخ المدرسة الكوفية الكسائي، فنصحه الوزير ألا يفعل ذلك، قائلاً: إنه -أي الكسائي- شيخ مدينة السلام وقارئها، ومؤدب ولد أمير المؤمنين، وكل من في المصر له ومعه، ولكن سيبويه أبى إلا أن يجمع بينهما، فكان له ما أراد. وتقول الروايات إن سيبويه قد اجتمع بالكسائي في دار يحيى البرمكي، وقيل بل في دار الرشيد. ويقال إنه لقيه، قبل الكسائي، بعض أصحابه ومنهم الأحمر، والفراء وهشام بن معاوية، ومحمد بن سعدان: فساءلوه بهدف إضعاف عزيمته، وكسر شوكته، ثم ما لبث أن التقى صاحبهم الكسائي، الذي تعرض له بالسؤال في المسألة المعروفة "بالمسألة الزنبورية". وتروى كتب الطبقات قصة هذه المناظرة على الوجه الآتي:

جاء الكسائي في ناس من العرب، فقال لصاحبه سيبويه: تسألني أو أسألك؟ فقال سيبويه: بل تسألني أنت. قال الكسائي: كيف تقول:

قد كنت أظن أن العقرب أشد لسعة من الزنبور، فإذا هو هي، أو فإذا هو إيَّاها بعينها؟ فقال سيبويه: فإذا هو هي، ولا يجوز النصب. ثم سأله عن مسائل أخرى من نفس القبيل ومنها سؤاله: كيف تقول: خرجت وإذا زيد قائم؟ قال: خرجت وإذا زيد قائم، قال: فيجوز أن تقول: خرجت فإذا زيد قائماً، قال: لا، فقال الكسائي: لحنت، وخطَّأه الجميع، وقال الكسائي: العرب ترفع ذلك كلَّه وتنصبه، فدفع سيبويه قوله، وطال بينهما الجدال. فقال يحيى بن خالد: قد اختلفتما وأنتما رئيسا بلديكما فمن يحكم بينكما، وهذا موضع مشكل؟ فقال الكسائي: هذه العرب ببابك، قد جمعتهم من كل أَوْب، ووفدت عليك من كل صُقْع، وهم فصحاء الناس، وقد قنع بهم أهل المِصْرين وسمع أهل الكوفة والبصرة منهم فيُحضرون ويُسألون، فقال يحيى وجعفر: قد أنصفت، وأمر بإحضارهم، فدخلوا وفيهم أبو فَقْعَس، وأبو دِثار، وأبو ثَرْوان، فسُئلوا عن المسائل التي جرت بينهما فتابعوا الكسائي. فأقبل يحيى على سيبويه فقال: قد تسمع أيها الرجل؟ فانصرف المجلس على سيبويه، وأعطاه يحيى عشرة آلاف درهم وصرفه فخرج وصرف وجهه تلقاء فارس، وأقام هناك حتى مات غما بالذَّرب، ولم يلبث إلا يسيراً، ولم يعد إلى البصرة.[1]

---

(١) ياقوت الحموي: معجم الأدباء. ١٦/ ١١٩-١٢٠. وكذلك:

القفطي: إنباه الرواة : ٢/ ٣٥٨-٣٥٩

وتجمع الروايات على أن أولئك المحكمين من الأعراب الحطمية كانوا على صلة بأنصار الكسائي، وأنهم كانوا قد أُعدّوا من قبل ليسهموا في دعم موقف شيخهم، والدليل على ذلك، أن الحق كان في جانب سيبويه، وليس الكسائي، فقد جاء موقفه، كما جاءت إجاباته، موافقة النمط القرآني السليم، وما يقتضيه القياس في هذا الموضع من طرد للرفع قوله تعالى: ﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾[1]، وفي قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴾[2].

لقد كان وقع الهزيمة على نفس سيبويه شديداً موجعاً، فخرج من بغداد محزوناً، كاسف البال، مريضاً. وعقد العزم على الرحيل إلى خراسان، راغباً في الهدوء والعطاء في كنف طلحة بن طاهر ابن الحسين والي خراسان، ولكن وطأة المرض اشتدت عليه، فعاجلته المنية في شيراز، ودفن فيها - كما ذكرنا سابقاً - سنة ١٨٠هـ، على أرجح الأقوال. وكان سيبويه ينشد، وهو يجود بنفسه، قائلاً[3]:

يؤمِّل دنيا لتبقى له ... فمات المؤمِّل قبل الأملْ
حثيثاً يروّي أُصول النخيل ... فعاش الفسيل ومات الرجلْ

---

(١) الأعراف: ١٠٧-١٠٨

(٢) يس: ٢٩

(٣) ياقوت الحموي: معجم الأدباء. ١٦/ ١٢١

ثانياً – الكتاب :

عُرف هذا المؤلَّف النحوي، الذي ينسب إلى سيبويه، باسم "الكتاب"، أو باسم "كتاب سيبويه" فقط. ويبدو أن هذه التسمية لم تكن من صنع صاحب الكتاب نفسه، فقد مات الرجل – فيما يظن– قبل أن يسمّيه. ويبدو أنه كان ينوي العودة إلى كتابه مرة ثانية لمراجعته، وإعادة النظر في ترتيب أبوابه وتوضيح مسائله، ولكن المنية عاجلته قبل أن ينفذ تلك الرغبة. ولعل خلو الكتاب من مدخل أَو مقدمة، وخلوه أيضاً من خاتمة، يدعم هذا الاعتقاد.

ومع ذلك، فقد اصطلح معاصرو سيبويه، ومن جاء بعدهم من العلماء، على تسمية هذا السفر النفيس باسم "الكتاب"، وكان قول الواحد منهم "قرأت الكتاب"، أو "قال صاحب الكتاب"، لا يعني شيئاً سوى هذا المؤلَّف، وصاحبه.

ويجمع الباحثون على أن سيبويه قد ألف كتابه بعد وفاة شيخه وأستاذه الخليل بن أحمد، ويستدلون على ذلك بتعقيبات سيبويه على أقوال الخليل، التي ضمنها كتابه، بعبارة "رحمه الله"، فضلاً عن هذا النص، الذي ورد في مقدمة نسخة الكتاب التي حققها الأستاذ عبد

السلام هارون، "قال: وسمعت نصرا يحكي عن أبيه قال: قال لي سيبويه حين أراد أن يضع كتابه: تعال حتى نتعاون على إحياء علم الخليل"[1].

ولقد ظل هذا الكتاب مجهولاً، فترة من الزمان، إلى أن قُيِّضَ له مَن أذاعه ونشره بين الناس، وكان ذلك على يد تلميذ سيبويه أبي الحسن الأخفش الأوسط، سعيد بن مسعدة، الذي شهد - كما ذكرنا سابقاً- مولد الكتاب ونشأته. وقد طعن بعض القدماء في نسبة الكتاب إلى سيبويه، وذهبوا -ظناً منهم - إلى أنه من صنع جماعة من الناس بلغت عدتها اثنين وأربعين إنساناً من بينهم سيبويه.[2] كما ذهبوا أيضاً إلى أن سيبويه قد أخذ أصول كتابه ومسائله من الخليل، واقتبس الفروع والشروح من عيسى بن عمر، ويونس بن حبيب وغيرهم من علماء البصرة. ولكننا لا نرى هذا الرأي ولا نميل إليه؛ فالكتاب -كما توضح القراءة الداخلية له- يجري تأليفه على نسق واحد، وطريقة واحدة في التصنيف والتبويب ، فضلاً عن أن سمات الأسلوب وخواصه ، تشير، بكل جلاء ووضوح، إلى وحدة المؤلَّف وعدم توزعه.

ولا يعني هذا الكلام، بحال من الأحول، أن سيبويه لم ينتفع بجهود سابقيه من النحاة وعلماء اللغة، "إذ لا يعقل أن يبتدع سيبويه هذا

---

(١) مقدمة كتاب سيبويه ١/ ٢٤.

(٢) ابن النديم: الفهرست. ص: ٧٦

العلم المتكامل دون أن يفيد من تلك الجهود الأصيلة التي رسمت كثيراً من أصول النحو ومسائله ومقاييسه وعلله."[1]

ولقد أشار سيبويه نفسه إلى ذلك في أثناء اقتباساته المتناثرة في أرجاء كتابه، ولكن علمه في كتابه لم يقتصر على النقل والاقتباس، وإنما تعدَّى ذلك إلى الجمع والاستقراء والتنسيق والتحليل والتعليل ووضع الأسس والقواعد.

مادة الكتاب ومنهجه:

يعد كتاب سيبويه، أول كتاب لغوي جمع، بين دفتيه، مختلف القضايا النحوية، والصرفية، والصوتية للغة العربية، فضلاً عن اشتماله على بعض الإشارات واللمحات البلاغية، التي تناثرت في أثناء الكتاب وحناياه. وليس من الصواب أن يُنْعَتَ هذا الكتاب بأنه كتاب نحو فحسب، فهو – بالإضافة إلى تضمنه قدراً كبيراً من نحو العربية وقواعدها – يشتمل على المبادئ الأساسية للصرف العربي ، والنظرات العبقرية لعلم الأصوات في العربية. ولكن هذه الموضوعات، التي ملأت الكتاب، جاءت مختلطة فيما بينها في كثير من الأحوال، دونما تنظيم أو تبويب، على النحو، الذي كنا نأمله ونرجوه من كتاب رائد عملاق كهذا.

---

(١) الكتاب: مقدمة المحقق ١/ ٢٤-٢٥.

وقد استقى سيبويه مادة كتابه الأساسية من القرآن الكريم، الذي أكثر من الاستشهاد به، والاقتباس منه، وكان يشير في بعض الحالات إلى بعض القراءات القرآنية التي اعتمد عليها في تقعيد بعض قواعده. أما الحديث الشريف، فقد كان قليل الاقتباس منه والاستدلال به على ما يذهب إليه من قضايا ومسائل.

وإضافة إلى ذلك، فقد استشهد سيبويه كثيراً بالشعر الجاهلي، وشعر المخضرمين وصدر الإسلام، وكان كثير من الشواهد المنسوبة في الكتاب "من نسبة أبي عمر الجرمي."[1]

أما بالنسبة للنثر، فقد كان المعين الأساسي لسيبويه، فمنه أخذ واستقى مادة غزيرة، كما أنه أشار إلى اللهجات العربية وتباينها في الاستعمال اللغوي.

وكان سيبويه يهتم – في جمعه لمادته وتحليله اللغوي – بالطريقة التسجيلية، فقد كان يسجل كل ما يعرف، أو يسمع، أو يروي، ثم يتبع ذلك بالشواهد المختلفة، أو بالإحالة إلى أساتذته أو رواته، وكانت عنايته تتجه – في المقام الأول– إلى المنطوق اللغوي، وما يمكن أن يطرأ عليه من اختلافات مردها البيئة، أو الحالة الاجتماعية والثقافية.

---

(١) الكتاب. ١/ ٣٣

وعلى الرغم من الصعوبة ، التي اتسم بها هذا الكتاب حتى على بعض القدماء[1]، فإن " كلمات عبارته متلاحمة مستوية ، لا قلق فيها ولا نتوء، وفقراتها متواصلة يجذب بعضها بعضاً، وتأخذ فيها الهوادي بالتوالي ، فإذا هي تمر بين يديك في أكثر الأمر تباعاً متداركة ، لا تكاد تنقطع أو تنقسم، حتى تتم مسائل الباب كله، أو مرحلة من مراحله"[2]، ومع ذلك ، فقد جاءت "عبارة الكتاب تتفاوت وضوحاً وغموضاً، فربما وضحت حتى تصير كفلق الصبح سفوراً وإشراقاً، تستبق إلى الفهم ألفاظه ومعانيه، وربما غمضت واستغلقت حتى تكون كالأحاجي والطلسمات، يحار فيها الفهم، ويرتد عنها القارئ عجزاً وكلالاً، وبين هذين الحدين مراتب من الوضوح والغموض لا تكاد تحصى كثرة"[3]

وعلى أي حال، فإن كتاب سيبويه يعد دستور العربية الأول، وسفرها النفيس الخالد على مر الزمن. ولقد سماه الناس قديما "قرآن النحو"[4]، فأثنوا عليه وعلى صاحبه، " قال الجاحظ: أردت الخروج إلى

---

(١) ومن الأمثلة على ذلك، أن أبا العباس المبرد كان يقول لمن أراد أن يقرأ عليه كتاب سيبويه : هل ركبت البحر؟ انظر بغية الوعاة. ٢/ ٢٢٩.

(٢) علي النجدي ناصف: سيبويه إمام النحاة. ص: ١٥٩.

(٣) السابق نفسه.

(٤) أبو الطيب اللغوي: مراتب النحويين. ص: ١٠٦

محمد بن عبد الملك[1]، ففكرت في شيء أهديه له فلم أجد شيئاً أشرف من كتاب سيبويه، وقلت له: أردت أن أهدي لك شيئاً، ففكرت فإذا كل شيء عندك، فلم أرَ أشرف من هذا الكتاب، وهذا الكتاب اشتريته من ميراث الفرَّاء. قال: والله ما أهديتَ إِليَّ شيئاً أحبّ إليّ منه[2]

وسنخصص هذه الدراسة لإلقاء الضوء على الفكر الصوتي لسيبويه، وذلك من خلال استعراض آرائه الصوتية التي سجلها في نهاية مؤلفه الخالد "الكتاب". ومن المعلوم أن سيبويه - شأنه شأن من جاء بعده من اللغويين- قد عالج القضايا الصوتية للغة العربية تحت باب الإدغام. والإدغام -كما هو معروف- قضية صرفية صوتية.

ويبدو أن سيبويه قد أدرك أن معالجة بعض المسائل الصوتية ضرورية لفهم موضوعات الإدغام ومسائله، ولهذا فقد جاء ترتيب الموضوعات في الكتاب على النحو الآتي: نحو، ثم صرف، ثم أصوات وكان الأولى بهذا العالم أن يعكس هذا الترتيب بحيث يستهل كتابه بمعالجة القضايا الصوتية للغة العربية، ثم يناقش -بعد ذلك- قضايا الصرف وموضوعاته، ثم يبسط الحديث -في النهاية- في النحو ومسائله

---

(١) هو محمد بن عبد الملك الزيات وزير المعتصم.

(٢) ياقوت الحموي: معجم الأدباء. ١٦/ ١٢٣.

المختلفة، من منطلق كون الدرس الصوتي يمهد للصرف، وعلى اعتبارهما معا وسيلة ضرورية لفهم النحو وقضاياه المختلفة.

ومن الجدير بالذكر، أن الدرس الصوتي "السيبويهي" لم يكن محصوراً في باب الإدغام فحسب، بل إن موضوعات الإدغام ذاتها لم تعالج برمتها في هذا الباب المخصص للإدغام. وإنما نجد هذه القضايا الصوتية والصرفية مبثوثة في تضاعيف الكتاب بأجزائه المختلفة، ولهذا فإننا -وعلى الرغم من حصر دراستنا في باب الإدغام- سنجد أنفسنا مضطرين إلى الخروج -في بعض الحالات- عن دائرة باب الإدغام، إلى أبواب أخرى. وذلك من أجل مناقشة، أو استكمال مناقشة، بعض القضايا الصوتية أو الصرفية ذات العلاقة بدراستنا.

ونودُّ أن نذكر، في ختام هذا التمهيد، ما سبق لنا أن ألمحنا إليه في المقدمة، وهو أن جُلَّ اللغويين، الذين جاءوا بعد سيبويه، كانوا مدينين له في معظم ما أودعوه بطون كتبهم ومؤلفاتهم. فقد ترسموا خطى سيبويه في كل ما ذهبوا إليه من درس نحوي وصرفي بعامة، وصوتي بخاصة. ولا يجد المرء كبير عناء في التعرف إلى مدى التأثير الكبير الذي خلفه هذا الشيخ الرائد في عقول أولئك العلماء وفكرهم.

إن جولة خاطفة في الجانب الصوتي لمؤلفات ابن جني، والزمخشري، وابن يعيش، والزجاجي، وابن الحاجب، والرضي،

والسيوطي وغيرهم كثير، تُطلعنا على الحضور الواضح لسيبويه في تلك المؤلفات. بل إن أصحاب تلك المؤلفات كانوا يستعملون لغة سيبويه في التعريف، والتحليل، والتعليل، والتقعيد لكل ما كانوا يذهبون إليه.

ولقد اعتمدنا -في هذه الدراسة- على طبعة الكتاب، التي توفر على تحقيقها وإخراجها شيخ المحققين العرب أستاذنا الجليل عبد السلام هارون، وقد جاءت هذه الطبعة الحديثة الموثقة في خمسة أجزاء، خصص آخرها للفهارس. وقد صدرت هذه الطبعة، التي اعتمدنا عليها، وهي الطبعة الثالثة، عن عالم الكتب في بيروت سنة ١٩٨٣م.